اتجاهات جديدة في الرواية الأوروبية

د. سهير القلماوي

(١)

لقد خاضت الرواية دون سائر الانواع الادبية معركة طويلة متعددة المراحل فى سبيل أن تكون نوعاً أدبيا رفيعا معترفا به • عاشت طويلا مرحلة شعبية بدائية ـ مرحلة الحدوتة ـ وتطورت أساطير وملاحم شعرية فى بعض الزمان والمكان ، ولكنها ظلت فى طورها الاول تعيش بين أفواه العامة وأسماعهم دون أن ترقى منزلة الى ما هو أعلى من ذلك فى سلم الادب الرفيع • ويوم بدأ المؤلفون يتجهون اليها فى عصر التجارة الزاهر الذى زخرخ نفوذ الاقطاعيين والنبلاء بحكم ما زخرت به أخيلة الناس من مناظر وأحداث وعجائب فى الاسفار التجارية ظلت الرواية نوعا منبوذا من الفن الرفيع لا يتعاطاه المثقفون البرجوازيون وأوت أخبار الاسفار وعجائبها الفريدة الى كتب شبه علمية خاصة بها والى كتب شبه أدبية هى كتب الرحلات القديمة • وببزوغ فجر الصناعة أخذت جماهير القراء تتدفق الى دنيا الادب أو الفن عامة وساعدت المطبعة على نماء هذا الميل وتغذيته واذا حال جمهور الصناعة أو مزاجه يطلب الرواية دون سائر الانواع الادبية لاسباب واضحة • واذا الرواية فى معركة طويلة تنفض عن نفسها اللعنة الى أن دخلت باب الفن الرفيع ، بل انها أخذت تنتقم من التاريخ الذى حكم عليها باللعنة والنبذ زمانا فاذا هى تكاد تقهر الانواع الادبية كلها فى سوق القارئين •

كان هذا شأن الرواية من حيث دخولها حرم الفن ولكنها منذ دخلت من أضيق الابواب ظلت تبرر نفسها بقيم خلقية وعظية حتى زمان قريب • وحياتها داخل نطاق الفن تمثل أطوارا طويلة متعددة تختلف من بلد الى بلد وتختلط بالرواية الشعبية عن قرب أو عن بعد ولكنها فى جملتها تمثل المراحل الآتية • المرحلة المفرطة كحبات العقد كل منها حبة ثمينة فى حد ذاتها وما على القاص الا أن يجمع حبات هذا

العقد فى خيط واحد واه هو ان هذه العجائب وتلك الغرائب كلها رآها انسان واحد أو حدثت لبطل واحد · ان كل حادثة وكل اعجوبة مشوقة فى حد ذاتها والقارىء يريد المزيد منها كمـــا يريد النهم المزيد من الطعام · ان لذة الرواية فى هذا الطور كانت فى تتبع هذه الرحلة المتنقلة بين حبات العقد · وتأتى الرحلات وعلوم الجغرافيـــا وكتب العجائب والفلك والانواء وما شابهها لتغذى هذا النوع من الروايات فلم يكن لمؤلفيهـــا أمام العطش المتزايد من الجمهـــور قدرة على أن يشبـــعوا ذلك عن طريق الرحـــلات الفعلية أو المعلومات المحـــدودة التى تصل اليهم عن الناس · ثم جاء طور رواية البطل المحبـــوب الذى تحدث له جملة احداث قـــد لا تكون طريفة وانما السر فى اننا نتـــابع الرواية هو حبنا للبطل ورغبتنا الشديدة فى أن نراه يصل الى النهاية السعيدة رغم المخاطر أو حتى رغم الظروف العادية السيئة · لقد صورت الرواية فى آخر هذا الطور رحلة الحياة قريبة من التاريخ مشرفة على الواقع · وقليلا قليلا كان من الطبيعى أن تتطور الى رواية « النجاح » لأن النجاح فى الحياة هو أهم جزء منها واذا الروائى يستبدل برحلة الحياة بتفاصيلها مجرد الجزء الخاص برحلة النجاح فى الحيـــاة · وبدأ الصراع يدخل الرواية فالنجاح معنـــاه تغلب على الصعاب وكلمـــا ازدادت الصعاب خطرا كان النجاح أحلى وأوقع · ولكن رحلة النجاح تقرب من الواقع فى طورها الاخير فاذا الصعاب العادية تأخذ أبعادا غير عادية واذا النصر نفسه يتضاءل أمام قرب هـــذه الضعاب من يوميات القارىء وتجاربه · ولم يكن الامر بعـــد ذلك عسيرا · ان الانســـان يصارع القدر ويصارع الناس ويصارع المجتمع ولكنه قبل هؤلاء جميعا تكمن فيه هو كبرى الصعاب فى حياته · واذا روايات النجاح تتحول فى يسر الى روايات الصراع مع النفس · وبشرت الرواية بعلم النفس ثم نشأ علم النفس علاجيا فى كنف الطب وهرعت علوم وعلوم تغذى الرواية الحديثة علم الطب والنفس والفلسفة والمذاهب والعقائد والاقتصاد بعد أن عمق التأثر بالتاريخ والجغرافيا وغيرها · وأخذ علم النفس الوليد بالذات يقذف بنتائجه الى عالم الرواية ليؤثر تأثيرات جبارة · وكثرت فى هذه المرحلة

روايات العقل الباطنى فى سبيل تحليـــل دوافع السلوك الانسانى · وكانت رواية « المنولوج الداخلى » كمـا تسمى سيدة النوع فى هذه الفترة المعاصرة وكثر القاء الاشـــعاع الزمنى على الماضى وعلى المستقبل الغامض · وخفت الحدث وبرزت الشخصية بروزا سرطانيا متورما ·

ووقف الروائيون يسائلون أنفسهم فى العصر الحديث كلما سئموا اتجاها ما كل هذا ؟ هل هذا هو الفن · ان الفن لا يبغى أكثر من ايصـــال تجربة جديدة الى المتلقى تجربة لا يراد لها أن تضاف اضافة حسابية الى تجارب النـاس السابقة ، فكتب المعلومات عامة مملوءة بمثل هـذه التجارب ونتائجها وهى حرية بأن تدفع بآلاف التجـــارب لمن يريد أن يزيد حصيلته منها فى أخصر لفظ واوضحة ، ولكن الفن يريد أن يضيف الى تجاربنـا بهذه التجربة الجديدة اعماقا جديدة لكل ما سبق لنا ان مارسنا من التجارب الفعلية أو المتصورة · ابعادا واعماقا جديدة تأتى بهـــا التجربة الفنية لم تخطر لنا على بال لأن الفن يحرق العادى والمنظم ويخترقه ليفتح لنا فيه كوه نطل منها على أعماق الحياة ·

وبتقدم العلوم ازدادت الحاجة الى الفن وان ظن بعـد الجاهلين غير ذلك · بتقدم العلوم أخذ الانسان يسأل نفسه « فيم كل ذلك ؟ » · ماذا يكمن وراء أسرار هذا العلم وماذا وراء مكتشفاته من آفاق ؟ ماذا وراء رحلات الفضاء ولمـــاذا يريد الانسان أن يغزو عوالم أخرى ؟ نعم والى أى غاية ؟

وأمام هذه التساؤلات الضخمة انتشت الرواية بطاقة ضخمة · انها وحدها أوضح الانواع بل أوضح الفنون فى مخاطبة العقل · أوضح من الرسم ومن الموسيقى · بل أوضح من الشعر ولذلك كانت هى الاقدر على الرد الاوضح على هذه الاسئلة · ان الفنون كلها تر ردودا قد تكون أعمق أو أقوى أثرا ولكن الرواية تمتاز بأنها لا تستطيع الا أن تكون أوضح مهما أمعنت فى الغموض · انهـــا بذلك تصبح الفن أو النوع الادبى الاول الذى يحاول الرد على الاســـئلة أو يحاول درس المشكلة · ولذلك سميت « فن المشاكل » عند

بعض النقاد المحدثين · انها تستطيع وحدها أن تعالج الابعاد المتعددة للمشكلة الواحدة ·

وهى الفن الذى يستطيع أن يسبر غور مشاكل النفس البشرية · مشاكل النفس مع الغير من أفراد الاسرة أو المجتمع أو الحياة عامة ومشاكل النفس مع النفس ذاتها · وبدل ان تصور الرواية الحديثة نمو الانسان من طفولة الى شباب الى رجولة ثم كهولة ، لتصور انتصار الحيـاة واكتمالها وبعض سرها الاكبر أو لتصور التغلب على الصعاب ما تكون فى رحلة النجاح ، أخذت الرواية تركز نفسها على المشاكل · مشاكل الطفولة والمراهقة خاصة مشاكل الطفل الذى لا يفهمه أبواه مشاكل الصبى وعينه تتفتـح على الموت وحقيقته مشـــاكل المراهق وهو يحـاول أن يكيف نفسه مع مجتمع زاخر بقيم زائفة · وبدل أن تسعى الرواية فى موضوع الحب لتوصلنا الى بر الزواج السعيد أخذت الرواية تبـدأ بمشاكل التأقلم بين الزوجين المتحابين هذه الاقلمة التى تسعد النفس فتتكامل وتحيـا رسالتهـــا المقدسة او التى تمزق النفس فتشقيها وتبعثرها هباء منثورا · انها روايات البداية الصعبة لا النهاية السعيدة هى التى تسود فى عالم الرواية اليوم ·

ولكن العلم يتدخل لحل هذه المشاكل بطريقته · ن الطب النفسانى يعالج العقد النفسية والمشـاكل الاقتصادية فى المجتمـــع يعالجهـــا علم الاقتصـــاد ومبدعو النظريات السياسية ، والطب اليوم يكاد يقـــول الكلمة الفصـــل فى المشاكل الجنسية · وهكذا تعالج العـــلوم المختلفة تفصيلا وتجريبا هذه المشاكل وتتصدى بوسائلهـــا الاقدر والاقوى لحلها · فماذا بقى للرواية· هل لها ان تنافس العلم وتتقدمه لتخترع الحلول التى عجز عنهـا الى الآن ؟ من يدرى ؟ الم تبشر الرواية بأثر العقل الباطنى فى سلوك الانسان دون أن تعرف لفظ العقل الباطنى وقبل أن يفكر الطب فى محـاولة تفسير السلوك المرضى عن طريقه ؟ ولكن الذى لا شك فيه ان الاسلوب التجريبى والمعمل العلمى يتحديان الرواية فى هذا الميدان · وليس من حق الرواية على نفسها أن تدخل هذا الميدان على انه ميدان نشاطها الاول · واذن مرة أخرى ماذا

بقى للرواية • بقى لها أن تجدد فى أبعـــاد المشـــكلة وأن تتخطى العـــلم بخيالها الى حلول يمليهـــا الحدس ويفجرها التعمق فى ملاحظة السلوك ملاحظة فنية لحاجة يعجز عنهـا العالم الذى يفتقر الى حس الفنان • سلوك الانسان صاحب المشكلة هام فى المعمل من نواح عدة ولكنه فى الرواية هام من نواح أخرى ، وابعاد صفات هذا السلوك عند الفنـــان غيرها عند العالم • ان العالم يرى كل حركة فى مستوى سائر الحركات ويرصدها رصدا لعل فيها هى السر المفسر • ولكن الفنان يلتقط مفردة من هـذا السلوك ويعرف انهـــا السر ويتعمق هذه المفردة ويضيف اليها أبعادها الفنية لا الواقعية• انه مجهر من نوع خاص •

وجهود الروائيين فى أنحاء العالم تتضافر كما تتضافر جهود العلماء فى سبيل حل مشـــاكل الانسان • والرواية الجديدة لا بد أن تختلف عن القديمة ولكنها لا بد أن تتأثر بغيرها مما تقـــدم من جهود فى الميدان الرواية الجديدة • تستلم الخيط من الســـابقين لتسير فى آفاق أوسع وآماد أرحب واغوار أعمق مما سار فيه السابقون • وهنا نجد ان تلاقى الروائيين ضرورى كتلاقى العلماء • ولما كانت الرواية أســـهل فى الترجمة واين من سائر الانـــواع الادبية فان آثارها لا يمكن أن تحصر بين حدود جغرافية أو قيود اختلاف اللغة • الرواية فى كل بلد تتأثر بالرواية فى البلاد الاخرى• والقصة الشعبية كان التجار يحملونها مع بضائعهم ليجوبوا بها آفاق الارض فتتذوق فى كل مكان وتغذى القصة المحلية أيما غذاء • ولقد تشابكت رحلات التجار والمغامرين وتعددت بحيث أصبح أعسر العسير أن تعرف من أين جاءت هـــذه القصة الشعبية الى مكان بعينه واختلط الزمان والمكان فى تاريخ الرواية الشعبية بحكم طبيعة الرواية أو القصة • انها قابلة للسفر وعندها قابلية ضـــخمة لان تتاقلم • ولناخذ فرنســـا مثلا انهـــا تاثرت بالرواية الانجليزية والامريكية والالمانية والاسبانية والايطالية والروسية وغيرها وغيرها آثارا واضحة لامجال للشك فيها • واثرت هى بدورها فى روايات تلك اللغات • فرواية المنولوج الداخلى مثلا التى بشر بهـــا بروست الفرنسى كما بشر بها جيمس جويس الايرلندى تلين فى يد الروائيين الجدد فى فرنسا اليوم لتجـارب جديدة • والغامض أو المخيف الذى نشره كافكا التشيكوسلوفاكى يخضع

لتجارب جديدة فى فرنسا وفى انجلترا وكلها تدين بشكل واضح لتجربة كافكا الفذة · والانتقال السريع ذهابا وايابا بين ماضى وحاضر ومستقبل والانتقال الخاطف بين وجهات النظر المختلفة فى موضوع أو حتى موضوعات شتى دون ترتيب منطقى أو تبويب جاف مثلما تنتقل عدسة السينما فى سرعة من جانب الى جانب ن جوانب الصورة أو غيرها مما يوجد ولا يرى فى مكان بعينه كل هذا الذى برع فيه « كونراد » الايرلندى من المناظر غير المرتبطة نراه يلين فى أيدى الروائيين المجدثين ويسيرون فى خطه الى آماد أبعد · والضغط على الحوار الثانوى أو الاعتراضى أو الهامشى الذى برع فى استعماله أول الامر بروست وجويس اكتسب فى أيدى الروائيين الجدد حيوية جديدة وتدفقا تلقائيا جارفا · وسارتر أديب فرنسا الاكبر الذى برع فى اغراق القارىء فى حاضر يشرأب الى مستقبل غامض غير واضح وغير معروف بينما هو مغمور غمرا فى « الآنية » العنيفة انما تعلم فنه هذا أول ما تعلم على همنجواى ودوس باسوس الامريكيين ثم برع وبرع حتى ساواهما أوفاق · وهذا الحوار الهامشى الذى تعج به الرواية صفحات وصفحات قد بلغ رشده عند فوكنر الامريكى وأصبح اليوم هو بدعة العصر الحديث فى فن الرواية فى كل أوروبا ·

وأصبح روائيو الخمسينات من هذا القرن يغرقون فى هذا النوع من الحوار المتدفق التلقائى الذى يضحى فى سبيله بيسر بالحدث وبيسر نسبيا بالشخصية ذاتها · فالرواية لا حدث فيها ولا شخصية ، وانما هى حوار حى متدفق بين مجموعة من الناس عادة لا يبرز فيها أحد على غيره · والحديث يجرى ويجرى ولا يعنى الروائى حتى بأن يحدد لنا منذا الذى يتحدث · انه حديث حى كالذى يجرى بين الناس فى أى زمان وأى مكان · انه هو وحده الذى يبقى ويستمر وقد يموت الناس وحديث الجماعة فى الحى هو هو ·

ولئن بالغ الروائيون الجدية أو « الواقعيون الجدد » كما يسمون فى استغلال هذا الحوار الهامشى المتدفق فان ذلك انما يكون فى سبيل تصوير بعد جديد من ابعاد الحياة الانسانية ·